تفسير سورة الحديد

وهى تسع وعشرون آية . وهى مدنية . قال القرطبى: فى قول الجميع .وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت سورة الحديد بالمدينة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج الطبرانى وابن مردويه ، قال السيوطى : بسند ضعيف ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « نزلت سورة الحديد يوم الثلاثاء ، وخلق الله الحديد يوم الثلاثاء ، وقتل ابن آدم أخاه يوم الثلاثاء ، ونهى رسول الله ﷺ عن الحجامة يوم الثلاثاء » (١) . وأخرج الديلمى عن جابر مرفوعًا : « لا تحتجموا يوم الثلاثاء فإن سورة الحديد أنزلت يوم الثلاثاء»(٢) . وأخرج أحمد ، والترمذى وحسنه ، والنسائى وابن مردويه، والبيهقى فى الشعب عن العرباض بن سارية ؛ أن رسول الله ﷺ كان يقرأ المسبحات قبل أن يرقد وقال : « إن فيهن آية أفضل من ألف آية » وفى إسناده بقية بن الوليد وفيه مقال معروف (٣) . وقد أخرجه النسائى ، عن خالد بن معدان قال : كان رسول الله ﷺ ولم يذكر العرباض بن سارية ، فهو مرسل (٤) . وأخرج ابن الضريس عن يحيى بن أبى كثير قال : كان رسول الله ﷺ لا ينام حتى يقرأ المسبحات ، وكان يقول : « إن فيهن آية أفضل من ألف آية » قال يحيى : فنراها الآية التى فى آخر الحشر . وقال ابن كثير فى تفسيره : والآية المشار إليها والله أعلم هو قوله: ﴿ **هو الأول والآخر والظاهر والباطن** ﴾ (٥) الآية . والمسبحات المذكورة : هى الحديد ، والحشر ، والصف ، والجمعة ، والتغابن .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ **سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٦﴾** ﴾

---

(١) قال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١٢٣ : « رواه الطبرانى وفيه مسلمة بن على وهو ضعيف » .

(٢) الديلمى (٧٣٩٥) عن أنس ، وقد ذكر المحقق أن هذا الحديث عن جابر مرفوعا فى زهر الفرد وس ٤/ ١٨١ .

(٣) أحمد ٤/ ١٢٨ والترمذى فى فضائل القرآن (٢٩٢١) وقال : « هذا حديث حسن غريب » والنسائى : فى عمل اليوم والليلة (١٠٥٤٩) والبيهقى فى الشعب (٢٢٧٣ ، ٢٢٧٤) .

(٤) النسائى فى عمل اليوم والليلة (١٠٥١).

(٥) ابن كثير ٦/ ٥٤٣ .

قوله : ﴿ **سبح لله ما فى السموات والأرض** ﴾ أى نزهه ومجده . قال المقاتلان : يعنى كل شيء من ذى روح وغيره ، وقد تقدّم الكلام فى تسبيح الجمادات عند تفسير قوله : ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم ﴾[الإسراء : ٤٤] والمراد بالتسبيح المسند إلى ما فى السموات والأرض من العقلاء وغيرهم والحيوانات والجمادات ، هو ما يعمّ التسبيح بلسان المقال كتسبيح الملائكة والإنس والجنّ ، وبلسان الحال كتسبيح غيرهم ، فإن كل موجود يدل على الصانع . وقد أنكر الزجاج أن يكون تسبيح غير العقلاء هو تسبيح الدلالة وقال : لو كان هذا تسبيح الدلالة وظهور آثار الصنعة لكانت مفهومة . فلم قال : ﴿ **ولكن لا تفقهون تسبيحهم** ﴾ ؟ وإنما هو تسبيح مقال ، واستدل بقوله : ﴿وسخرنا مع داود الجبال يسبحن ﴾ [الأنبياء : ٧٩] فلو كان هذا التسبيح من الجبال تسبيح دلالة لم يكن لتخصيص داود فائدة ، وفعل التسبيح قد يتعدّى بنفسه تارة ، كما فى قوله : ﴿وسبحوه ﴾[الأحزاب : ٤٢] وباللام أخرى كهذه الآية ، وأصله أن يكون متعديا بنفسه ، لأن معنى سبحته : بعدته عن السوء ، فإذا استعمل باللام ، فهى إما مزيدة للتأكيد كما فى شكرته وشكرت له ، أو هى للتعليل ، أى افعل التسبيح لأجل الله سبحانه خالصًا له ، وجاء هذا الفعل فى بعض الفواتح ماضيا كهذه الفاتحة ، وفى بعضها مضارعا ، وفى بعضها أمرا للإشارة إلى أن هذه الأشياء مسبحة فى كل الأوقات لا يختصّ تسبيحها بوقت دون وقت ، بل هى مسبحة أبدا فى الماضى ، وستكون مسبحة أبدا فى المستقبل ، ﴿ **وهو العزيز**﴾ أى القادر الغالب الذى لا ينازعه أحد ، ولا يمانعه ممانع ، كائنا ما كان ، ﴿ **الحكيم** ﴾ الذى يفعل أفعال الحكمة والصواب .

﴿ **له ملك السموات والأرض** ﴾ يتصرّف فيه وحده ولا ينفذ غير تصرّفه وأمره ، وقيل : أراد خزائن المطر والنبات وسائر الأرزاق ﴿ **يحيى ويميت** ﴾ الفعلان فى محل رفع على أنهما خبر لمبتدأ محذوف ، أو فى محل نصب على الحال من ضمير « له» ، أو كلام مستأنف لبيان بعض أحكام الملك ، والمعنى : إنه يحيى فى الدنيا ، ويميت الأحياء . وقيل : يحيى النطف وهى موات ، ويميت الأحياء . وقيل : يحيى الأموات للبعث ﴿ **وهو على كل شيء قدير** ﴾ لا يعجزه شيء كائنا ما كان . ﴿ **هو الأوّل** ﴾ قبل كل شيء ﴿ **والآخر**﴾ بعد كل شيء ، أى الباقى بعد فناء خلقه ﴿ **والظاهر** ﴾ العالى الغالب على كل شيء ، أو الظاهر وجوده بالأدلة الواضحة ﴿**والباطن**﴾ أى العالم بما بطن ، من قولهم فلان يبطن أمر فلان ، أى يعلم داخلة أمره . ويجوز أن يكون المعنى : المحتجب عن الأبصار والعقول، وقد فسر هذه الأسماء الأربعة رسول الله ﷺ كما سيأتى ، فيتعين المصير إلى ذلك ﴿ **وهو بكل شيء عليم** ﴾ لا يعزب عن علمه شيء من المعلومات . ﴿ **هوالذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام** ﴾ هذا بيان لبعض ملكه للسموات والأرض . وقد تقدم تفسيره فى سورة الأعراف وفى غيرها مستوفى . ﴿ **يعلم ما يلج فى الأرض** ﴾ أى يدخل فيها من مطر وغيره ﴿ **وما يخرج منها** ﴾ من نبات وغيره ﴿ **وما ينزل من السماء**﴾ من مطر وغيره ﴿ **وما يعرج فيها** ﴾ أى يصعد إليها من الملائكة وأعمال العباد،

وقد تقدّم تفسير هذا فى سورة سبأ ﴿**وهو معكم أينما كنتم**﴾ أى بقدرته وسلطانه وعلمه، وهذا تمثيل للإحاطة بما يصدر منهم أينما داروا فى الأرض من برّ وبحر ﴿**والله بما تعملون بصير**﴾ لا يخفى عليه من أعمالكم شىء ﴿**له ملك السموات والأرض**﴾ هذا التكرير للتأكيد ﴿**وإلى الله ترجع الأمور**﴾ لا إلى غيره . قرأ الجمهور : ﴿**ترجع**﴾ مبنيا للمفعول ، وقرأ حمزة والكسائى وابن عامر على البناء للفاعل . ﴿**يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل**﴾ قد تقدّم تفسير هذا فى سورة آل عمران ، وفى مواضع ﴿**وهو عليم بذات الصدور**﴾ أى بضمائر الصدور ومكنوناتها ، لا يخفى عليه من ذلك خافية.

وقد أخرج ابن أبى شيبة ومسلم والترمذى والبيهقى عن أبى هريرة قال : جاءت فاطمة إلى الرسول ﷺ تسأله خادما، فقال: قولى : « اللهمّ ربّ السموات السبع ورب العرش العظيم ، ربنا ورب كل شىء ، ومنزل التوراة والإنجيل والفرقان ، فالق الحب والنوى ، أعوذ بك من شر كل شىء أنت آخذ بناصيته ، أنت الأول فليس قبلك شىء ، وأنت الآخر فليس بعدك شىء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شىء ، وأنت الباطن فليس دونك شىء، اقض عنا الدين ، واغننا من الفقر »[1] . وأخرج أحمد ومسلم وغيرهما من حديث أبى هريرة من وجه آخر مرفوعا مثل هذا فى الأربعة الأسماء المذكورة وتفسيرها[2] . وأخرج أبو الشيخ فى العظمة عن ابن عمر وأبى سعيد عن النبى ﷺ : قال : « لا يزال الناس يسألون عن كل شىء حتى يقولوا : هذا الله كان قبل كل شىء فماذا كان قبل الله ؟ فإن قالوا لكم ذلك فقولوا : هو الأوّل قبل كل شىء . والآخر فليس بعده شىء . وهو الظاهر فوق كل شىء ، وهو الباطن دون كل شىء ، وهو بكل شىء عليم » . وأخرج أبو داود عن أبى زميل قال : سألت ابن عباس فقلت : ما شىء أجده فى صدرى : قال ما هو ؟ قلت : والله لا أتكلم به ، قال : فقال لى أشىء من شك ؟ قال وضحك ، قال ما نجا من ذلك أحد ، قال : حتى أنزل الله : ﴿ فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك ﴾ الآية[يونس : ٩٤] قال : وقال لى : إذا وجدت فى نفسك شيئا فقل: ﴿**هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم**﴾ . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿**وهو معكم أينما كنتم**﴾ قال : عالم بكم أينما كنتم .

﴿ **آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) وَمَا لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٨) هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ**

(١) ابن أبى شيبة فى الدعاء (٩٣٩٢) ومسلم فى الذكر والدعاء (٢٧١٣ / ٦١ ، ٦٣) والترمذى فى الدعوات (٣٤٠٠) وقال : « هذا حديث حسن صحيح »

(٢) أحمد ٢/ ٤٠٤ ومسلم فى الذكر والدعاء (٢٧١٣/ ٦١) وأبو داود فى الأدب (٥٠٥١) .

وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾

قوله : ﴿ **آمنوا بالله ورسوله** ﴾ أى صدّقوا بالتوحيد وبصحة الرسالة ، وهذا خطاب لكفار العرب ، ويجوز أن تكون خطابا للجميع ، ويكون المراد بالأمر بالإيمان فى حق المسلمين الاستمرار عليه ، أو الازدياد منه . ثم لما أمرهم بالإيمان أمرهم بالإنفاق فى سبيل الله فقال : ﴿**وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه** ﴾ أى جعلكم خلفاء فى التصرف فيه من غير أن تملكوه حقيقة ، فإن المال مال الله ، والعباد خلفاء الله فى أمواله فعليهم أن يصرفوها فيما يرضيه . وقيل : جعلكم خلفاء من كان قبلكم ممن ترثونه ، وسينتقل إلى غيركم ممن يرثكم فلا تبخلوا به، كذا قال الحسن وغيره ، وفيه الترغيب إلى الإنفاق فى سبيل الخير قبل أن ينتقل عنهم إلى غيرهم .والظاهر أن معنى الآية : الترغيب فى الإنفاق فى الخير ، وما يرضاه الله على العموم . وقيل : هو خاص بالزكاة المفروضة ، ولا وجه لهذا التخصيص . ثم ذكر سبحانه ثواب من أنفق فى سبيل الله فقال: ﴿ **فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير**﴾ أى الذين جمعوا بين الإيمان بالله ورسوله ، وبين الإنفاق فى سبيل الله لهم أجر كبير ، وهو الجنة .

﴿ **وما لكم لا تؤمنون بالله** ﴾ هذا الاستفهام للتوبيخ والتقريع ، أىّ أىّ عذر لكم ، وأىّ مانع من الإيمان ، وقد أزيحت عنكم العلل ، و ﴿ **ما** ﴾ مبتدأ و ﴿ **لكم** ﴾ خبره و ﴿ **لاتؤمنون**﴾ فى محل نصب على الحال من الضمير في ﴿ **لكم** ﴾ والعامل ما فيه من معنى الاستقرار . وقيل: المعنى : أى شىء لكم من الثواب فى الآخرة إذا لم تؤمنوا ؟ وجملة : ﴿**والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم** ﴾ فى محل نصب على الحال من ضمير لا تؤمنون على التداخل ، ولتؤمنوا متعلق بيدعوكم، أى يدعوكم للإيمان ، والمعنى : أى عذر لكم فى ترك الإيمان والرسول يدعوكم إليه وينبهكم عليه ؟ وجملة : ﴿**وقد أخذ ميثاقكم** ﴾ فى محل نصب على الحال من فاعل يدعوكم على التداخل أيضا، أى والحال أن قد أخذ الله ميثاقكم حين أخرجكم من ظهر أبيكم آدم، أو بما نصب لكم من الأدلة الدالة على التوحيد ووجوب الإيمان . قرأ الجمهور :﴿ **وقد أخذ**﴾ مبنيا للفاعل ، وهو الله سبحانه لتقدّم ذكره ، وقرأ أبو عمرو على البناء للمفعول :﴿ **إن كنتم مؤمنين**﴾ بما أخذ عليكم من الميثاق ، أو بالحجج والدلائل ، أو إن كنتم مؤمنين بسبب من الأسباب فهذا من أعظم أسبابه وأوضح موجباته .

﴿ **هو الذى ينزل على عبده آيات بينات** ﴾ أى واضحات ظاهرات ، وهى الآيات القرآنية . وقيل : المعجزات والقرآن أعظمها ﴿ **ليخرجكم من الظلمات إلى النور**﴾ أى ليخرجكم الله

بتلك الآيات من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان، أو ليخرجكم الرسول بتلك الآيات أو بالدعوة ﴿ **وإن الله بكم لرؤوف رحيم** ﴾ أى لكثير الرأفة والرحمة ،بليغهما حيث أنزل كتبه وبعث رسله لهداية عباده فلا رأفة ولارحمة أبلغ من هذه . والاستفهام فى قوله : ﴿ **وما لكم ألا تنفقوا فى سبيل الله**﴾ للتقريع والتوبيخ . والكلام فى إعراب هذا كالكلام فى إعراب قوله: ﴿ **وما لكم لا تؤمنون بالله** ﴾ . وفى هذه الآية دليل على أن الإنفاق المأمور به فى قوله : ﴿**وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه** ﴾ هو الإنفاق فى سبيل الله كما بينا ذلك ، والمعنى : أى عذر لكم وأى شىء يمنعكم من ذلك ، والأصل : فى أن لا تنفقوا . وقيل : إن « أن » زائدة ، وجملة : ﴿ **ولله ميراث السموات والأرض** ﴾ فى محل نصب على الحال من فاعل ﴿ **ألا تنفقوا** ﴾ أو من مفعوله، والمعنى : أى شىء يمنعكم من الإنفاق فى ذلك الوجه، والحال أن كل ما فى السموات والأرض راجع إلى الله سبحانه بانقراض العالم كرجوع الميراث إلى الوارث، ولا يبقى لهم منه شىء ، وهذا أدخل فى التوبيخ وأكمل فى التقريع ، فإن كون تلك الأموال تخرج عن أهلها وتصير لله سبحانه ولا يبقى أحد من مالكيها، أقوى فى إيجاب الإنفاق عليهم من كونها لله فى الحقيقة، وهم خلفاؤه فى التصرفّ فيها .

ثم بين سبحانه فضل من سبق بالإنفاق فى سبيل الله فقال : ﴿ **لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح** ﴾ قيل : المراد بالفتح : فتح مكة . وبه قال أكثر المفسرين . وقال الشعبى والزهرى : فتح الحديبية . قال قتادة : كان قتالان ، أحدهما أفضل من الآخر ، ونفقتان إحداهما أفضل من الأخرى ، كان القتال والنفقة قبل فتح مكة أفضل من القتال والنفقة بعد ذلك، وكذا قال مقاتل وغيره ، وفى الكلام حذف ، والتقدير : لا يستوى من أنفق من قبل الفتح ﴿ **وقاتل** ﴾ ومن أنفق من بعد الفتح وقاتل ، فحذف لظهوره ولدلالة ما سيأتى عليه ، وإنما كانت النفقة والقتال قبل الفتح أفضل من النفقة والقتال بعد الفتح ، لأن حاجة الناس كانت إذ ذاك أكثر وهم أقلّ وأضعف ، وتقديم الإنفاق على القتال للإيذان بفضيلة الإنفاق لما كانوا عليه من الحاجة ، فإنهم كانوا يجودون بأنفسهم ولا يجدون ما يجودون به من الأموال :

والجود بالنفس أقصى غاية الجود

والإشارة بقوله :﴿ **أولئك** ﴾ إلى ﴿ **من** ﴾ باعتبار معناها وهو مبتدأ وخبره :﴿ **أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا** ﴾ أى أرفع منزلة وأعلا رتبة من الذين أنفقوا أموالهم فى سبيل الله من بعد الفتح وقاتلوا مع رسول الله ﷺ . قال عطاء : درجات الجنة تتفاضل ، فالذين أنفقوا من قبل الفتح فى أفضلها . قال الزجاج : لأن المتقدّمين نالهم من المشقة أكثر مما نال من بعدهم ، وكانت بصائرهم أيضا أنفذ .وقد أرشد ﷺ إلى هذه الفضيلة بقوله فيما صح عنه: «لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مُدّ أحدهم ولا نصيفه »[1] وهذا خطاب منه ﷺ للمتأخرين

(١) مسلم فى فضائل الصحابة (٢٥٤٠ / ٢٢١) عن أبى سعيد .

وصحبه كما يرشد إلى ذلك السبب الذى ورد فيه هذا الحديث ﴿ **وكلا وعد الله الحسنى** ﴾ أى وكل واحد من الفريقين وعد الله المثوبة الحسنى ، وهى الجنة مع تفاوت درجاتهم فيها ، قرأ الجمهور : ﴿ **وكلاً** ﴾ بالنصب على أنه مفعول به للفعل المتأخر ، وقرأ ابن عامر بالرفع على الابتداء ، والجملة بعده خبره ، والعائد محذوف ، أو على أنه خبر مبتدأ محذوف ، ومثل هذا قول الشاعر :

قد أصبحت أمّ الخيار تدعى علىّ ذنبا كله لم أصنع

﴿ **والله بما تعملون خبير** ﴾ لا يخفى عليه من ذلك شىء . ثم رغب سبحانه فى الصدقة فقال : ﴿ **من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا** ﴾ أى من ذا الذى ينفق ماله فى سبيل الله ، فإنه كمن يقرضه ، والعرب تقول لكل من فعل فعلا حسنا : قد أقرض ، ومنه قول الشاعر :

وإذا جوزيت قرضا فأجزه إنما يجزى الفتى ليس الجمل

قال الكلبى : ﴿ **قرضا** ﴾ أى صدقة ﴿ **حسنا** ﴾ أى محتسبا من قلبه بلا منّ ولا أذى . قال مقاتل : حسنا : طيبة به نفسه ، وقد تقدم تفسير الآية فى سورة البقرة ﴿ **فيضاعفه له** ﴾ قرأ ابن عامر وابن كثير : « فيضعفه » بإسقاط الألف إلا أن ابن عامر ويعقوب نصبوا الفاء ، وقرأ نافع وأهل الكوفة والبصرة : ﴿ **فيضاعفه** ﴾ بالألف وتخفيف العين إلا أن عاصما نصب الفاء ورفع الباقون ، قال ابن عطية : الرّفع على العطف على ﴿ **يقرض** ﴾ ، أو الاستئناف والنصب لكون الفاء فى جواب الاستفهام ، وضعف النصب أبو علىّ الفارسى قال : لأن السؤال لم يقع عن القرض ، إنما وقع عن فاعل القرض ، إنما تنصب الفاء فعلاً مردودا على فعل مستفهم عنه ، لكن هذه الفرقة حملت ذلك على المعنى ، كأن قوله : ﴿ **من ذا الذى يقرض الله** ﴾ بمنزلة قوله : أيقرض الله أحد ﴿ **وله أجر كريم** ﴾ وهو الجنة ، والمضاعفة هنا هى كون الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف على اختلاف الأحوال والأشخاص والأوقات .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه ، وأبو نعيم فى الدلائل من طريق زيد ابن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبى سعيد الخدرى قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ عام الحديبية حتى إذا كنا بعسفان قال رسول الله ﷺ : «يوشك أن يأتى قوم يحقرون أعمالكم مع أعمالهم » قلنا : من هم يا رسول الله ؟ أقريش ؟ قال : « لا ، ولكنهم أهل اليمن ، هم أرق أفئدة وألين قلوبا » فقلنا : أهم خير منا يارسول الله ؟ قال : « لو كان لأحدهم جبل من ذهب ما أدرك مدّ أحدكم ولا نصيفه ، ألا إن هذا فضل ما بيننا وبين الناس : ﴿ **لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل** ﴾ الآية » وهذا الحديث قال ابن كثير : هو غريب بهذا الإسناد . وقد رواه ابن جرير ولم يذكر فيه الحديبية [1] . وأخرج أحمد عن أنس قال : كان بين خالد بن

(١) ابن جرير ١٢٧/٢٧ .

الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف كلام ، فقال خالد لعبد الرحمن : تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها ؟ فبلغ النبيّ ﷺ . فقال : « دعوا لى أصحابى ، فو الذى نفسى بيده لو أنفقتم مثل أحد أو مثل الجبال ذهبا ما بلغتم أعمالهم » والذى فى الصحيح عن رسول الله ﷺ بلفظ : « لا تسبوا أصحابى ، فوالذى نفسى بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما أدرك مدّ أحدهم ولا نصيفه»[1] وفى لفظ : «ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه » أخرج هذا الحديث البخارى ومسلم وغيرهما من حديث أبى سعيد الخدرى[2] . وأخرج ابن أبى شيبة عن ابن عمر قال : لا تسبوا أصحاب محمد ﷺ ، فلمقام أحدهم ساعة خير من عمل أحدكم عمره [3] .

﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (١٤) فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٥) ﴾

قوله : ﴿ **يوم ترى المؤمنين والمؤمنات** ﴾ العامل فى الظرف مضمر وهو اذكر ، أو كريم ، أو فيضاعفه ، أو العامل فى «لهم » وهو الاستقرار ، والخطاب لكل من يصلح له ، وقوله : ﴿**يسعى نورهم** ﴾ فى محل نصب على الحال من مفعول ترى . والنور هو الضياء الذى يرى ﴿**بين أيديهم وبأيمانهم** ﴾ وذلك على الصراط يوم القيامة ، وهو دليلهم إلى الجنة ، قال قتادة : إن المؤمن يضىء له نور كما بين عدن إلى صنعاء ، حتى إن من المؤمنين من لايضىء له نوره إلا موضع قدميه ، وقال الضحاك ومقاتل : وبأيمانهم كتبهم التى أعطوها ، فكتبهم بأيمانهم ، ونورهم بين أيديهم . قال الفراء : الباء بمعنى « فى » أى فى أيمانهم ، أو بمعنى « عن » . قال الضحاك أيضا : نورهم هداهم ، وبأيمانهم كتبهم ، واختار هذا ابن جرير الطبرى، أى يسعى إيمانهم وعملهم الصالح بين أيديهم ، وفى أيمانهم كتب أعمالهم ، قرأ الجمهور : ﴿ **بأيمانهم** ﴾ جمع يمين . وقرأ سهل بن سعد الساعدّى وأبو حيوة :« بإيمانهم » بكسر الهمزة على أن المراد بالإيمان ضد الكفر . وقيل : هو القرآن ، والجار والمجرور فى الموضعين فى محل نصب على

(١) أحمد ٣/ ٢٦٦ .

(٢) البخارى فى فضائل الصحابة (٣٦٧٣) ومسلم فى فضائل الصحابة (٢٢٢/٢٥٤١) وأبو دارد فى السنة (٤٦٥٨) .

(٣) ابن أبى شيبة (٢/١٢٤٦٣) .

الحال من نورهم ، أى كائنا بين أيديهم وبأيمانهم ﴿ **بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها** ﴾ **بشراكم** مبتدأ ، وخبره جنات على تقدير مضاف ، أى دخول جنات ، والجملة **مقول قول مقدر** ، أى يقال لهم هذا ، والقائل لهم هم الملائكة ، قال مكىّ : وأجاز الفراء نصب جنات **على الحال** ، ويكون اليوم خبر **بشراكم** ، وهذا بعيد جدًا ﴿ **خالدين فيها** ﴾ حال مقدرّة ، **والإشارة بقوله** :﴿ **ذلك** ﴾ إلى النور والبشرى ، وهو مبتدأ وخبره ﴿ **هو الفوز العظيم**﴾ **أى لا يقادر** قدره حتى كأنه لا فوز غيره ، ولا اعتداد بما سواه .

﴿ **يوم يقول المنافقون والمنافقات** ﴾ ﴿ **يوم** ﴾ بدل من ﴿ **يوم** ﴾ الأوّل ويجوز أن يكون **العامل فيه**: ﴿**الفوز العظيم**﴾ ، ويجوز أن يكون منصوبا بفعل مقدّر ، أى اذكر ﴿ **للذين آمنوا** ﴾ **اللام للتبليغ كنظائرها** . قرأ الجمهور : ﴿**انظرونا** ﴾ أمراً بوصل الهمزة وضم الظاء من النظر **بمعنى الانتظار** ، أى انتظرونا ، يقولون ذلك لما رأوا المؤمنين يسرع بهم إلى الجنة ، وقرأ الأعمش وحمزة ويحيى **بن وثاب** بقطع الهمزة وكسر الظاء من الإنظار، أى أمهلونا وأخرونا ، يقال : **أنظرته واستنظرته** ، أى أمهلته واستمهلته ، قال الفراء : تقول العرب :أنظرنى ، أى انتظرنى ، **وأنشد قول عمرو بن كلثوم**:

أبا هند فلا تعجل علينا وأنظرنا نخبرك اليقينا

وقيل : معنى ﴿ **انظرونا** ﴾ : انظروا إلينا، لأنهم إذا نظروا إليهم استقبلوهم بوجوههم فيستضيئون بنورهم ﴿**نقتبس من نوركم** ﴾ أى نستضىء منه، والقبس : الشعلة من النار والسراج، فلما قالوا ذلك ؛﴿ **قيل ارجعوا وراءكم** ﴾ أى قال لهم المؤمنون أو الملائكة زجرًا لهم وتهكمًا بهم أى ارجعوا وراءكم إلى الموضع الذى أخذنا منه النور ﴿ **فالتمسوا نورا** ﴾ أى اطلبوا هنالك نورا لأنفسكم ، فإنه من هنالك يقتبس ، وقيل : المعنى : ارجعوا إلى الدنيا فالتمسوا النور بما التمسناه به من الإيمان والأعمال الصالحة ، وقيل : أرادوا بالنور ما وراءهم من الظلمة تهكما بهم ﴿ **فضرب بينهم بسور** ﴾ السور : هو الحاجز بين الشيئين والمراد به هنا : الحاجز بين الجنة والنار ، أو بين أهل الجنة وأهل النار قال الكسائى : والباء فى ﴿**بسور**﴾ زائدة ، ثم وصف سبحانه السور المذكور فقال : ﴿ **له باب باطنه فيه الرحمة**﴾ أى باطن ذلك السور وهو الجانب الذى يلى أهل الجنة فيه الرحمة وهى الجنة وظاهره وهو الجانب الذى يلى أهل النار، ﴿ **من قبله العذاب** ﴾ أى من جهته عذاب جهنم ، وقيل : إن المؤمنين يسبقونهم فيدخلون الجنة ، والمنافقون يحصلون فى العذاب وبينهم السور . وقيل : إن الرحمة التى فى باطنه: نور المؤمنين ، والعذاب الذى فى ظاهره ظلمة المنافقين .

ولما ضرب بالسور بين المؤمنين والمنافقين أخبر الله سبحانه عما قاله المنافقون إذ ذاك فقال: ﴿**ينادونهم ألم نكن معكم**﴾ أى موافقين لكم فى الظاهر نصلى بصلاتكم فى مساجدكم ، ونعمل بأعمال الإسلام مثلكم ؟، والجملة مستأنفة كأنه قيل : فماذا قال المنافقون بعد ضرب

السور بينهم وبين المؤمنين ؟ فقال : ﴿ **ينادونهم** ﴾ . ثم أخبر سبحانه عما أجابهم به المؤمنون فقال : ﴿ **قالوا بلى** ﴾ أى كنتم معنا فى الظاهر ﴿ **ولكنكم فتنتم أنفسكم** ﴾ بالنفاق وإبطان الكفر. قال مجاهد : أهلكتموها بالنفاق ، وقيل : بالشهوات واللذات ﴿ **وتربصتم** ﴾ بمحمد ﷺ وبمن معه من المؤمنين حوادث الدّهر . وقيل : تربصتم بالتوبة ، والأوّل أولى ﴿ **وارتبتم** ﴾ أى شككتم فى أمر الدين ولم تصدّقوا ما نزل من القرآن ولا بالمعجزات الظاهرة ﴿ **وغرّتكم الأمانى** ﴾ الباطلة التى من جملتها ما كنتم فيه من التربص . وقيل : هو طول الأمل . وقيل: ما كانوا يتمنونه من ضعف المؤمنين . وقال قتادة : الأمانى هنا : غرور الشيطان . وقيل : الدنيا . وقيل : هو طمعهم فى المغفرة ، وكل هذه الأشياء تدخل فى مسمى الأمانىّ ﴿ **حتى جاء أمر الله** ﴾ وهو الموت . وقيل : نصره سبحانه لنبيه ﷺ. وقال قتادة : هو إلقاؤهم فى النار ﴿**وغركم بالله الغرور** ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ **الغرور** ﴾ بفتح الغين ، وهو صفة على فعول ، والمراد به : الشيطان ، أى خدعكم بحلم الله وإمهاله الشيطان ، وقرأ أبو حيوة ومحمد بن السميقع وسماك بن حرب بضمهما وهو مصدر .

﴿ **فاليوم لا يؤخذ منكم فدية** ﴾ تفدون بها أنفسكم من النار أيها المنافقون ﴿ **ولا من الذين كفروا** ﴾ بالله ظاهرًا وباطنا ﴿ **مأواكم النار** ﴾ أى منزلكم الذى تأوون إليه النار ﴿ **هى مولاكم** ﴾ أى هى أولى بكم ، والمولى فى الأصل : من يتولى مصالح الإنسان ، ثم استعمل فيمن يلازمه. وقيل : معنى ﴿ **مولاكم** ﴾ : مكانكم عن قرب ، من الولى وهو القرب. وقيل : إن الله يركب فى النار الحياة والعقل ، فهى تتميز غيظا على الكفار ، وقيل : المعنى: هى ناصركم ، على طريقة قول الشاعر :

تحية بينهم ضرب وجيع

﴿ **وبئس المصير** ﴾ الذى تصيرون إليه وهو النار .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه عن ابن مسعود : ﴿**يسعى نورهم بين أيديهم** ﴾ قال : يؤتون نورهم على قدر أعمالهم يمرون على الصراط ، منهم من نوره مثل الجبل ، ومنهم من نوره مثل النخلة ، وأدناهم نورا من نوره على إبهامه يطفأ مرة ويوقد أخرى [1] . وأخرج ابن جرير وابن مردويه ، والبيهقى فى البعث عن ابن عباس قال : بينما الناس فى ظلمة إذ بعث الله نورا ، فلما رأى المؤمنون النور توجهوا نحوه، وكان النور دليلهم من الله إلى الجنة ، فلما رأى المنافقون المؤمنين قد انطلقوا إلى النور تبعوهم ، فأظلم الله على المنافقين ، فقالوا حينئذ : ﴿ **انظرونا نقتبس من نوركم** ﴾ فإنا كنا معكم فى الدنيا، قال المؤمنون : ﴿ **ارجعوا وراءكم** ﴾ من حيث جئتم من الظلمة ﴿ **فالتمسوا** ﴾ هنالك

(١) ابن جرير ٢٧/١٢٨وصححه الحاكم ٢/٤٧٨ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .

النور [(١)] .

وأخرج **الطبراني** وابن مردويه عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله يدعو الناس يوم **القيامة بأمهاتهم سترًا** منه على عباده ، وأما عند الصراط فإن الله **يعطى** كل مؤمن نورا وكل **منافق** نورا **فإذا استووا** على الصراط سلب الله نور المنافقين والمنافقات ، فقال المنافقون : ﴿**انظرونا نقتبس من نوركم**﴾ وقال المؤمنون : ﴿ ربنا أتمم لنا نورنا ﴾[التحريم: ٨] فلا يذكر عند ذلك **أحد أحدًا** » [(٢)] وفى الباب أحاديث وآثار . وأخرج عبد بن حميد عن عبادة بن **الصامت أنه كان** على سور بيت المقدس فبكى ، فقيل له ما يبكيك ؟ فقال : ها هنا أخبرنا رسول **الله** ﷺ **أنه رأى** جهنم . وأخرج عبد بن حميد وابن **جرير** وابن المنذر وابن أبى حاتم ، **والحاكم وصححه** ، وابن عساكر عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : إن السور الذى ذكره الله فى **القرآن** ﴿ **فضرب بينهم بسور** ﴾ هو السور الذى ببيت المقدس الشرقى ﴿ **باطنه فيه الرحمة** ﴾ المسجد ﴿ **وظاهره من قبله العذاب** ﴾ يعنى وادى جهنم وما يليه [(٣)] .

ولا **يخفاك أن** تفسير السور المذكور فى القرآن فى هذه الآية بهذا السور الكائن ببيت المقدس، **فيه** من الإشكال ما لا يدفعه مقال ، ولا سيما بعد زيادة قوله : ﴿ **باطنه فيه الرّحمة** ﴾ **المسجد** ، **فإن هذا** غير ما سيقت له الآية وغير ما دلت عليه، وأين يقع بيت المقدس أو سوره بالنسبة **إلى** السور الحاجز بين فريقى المؤمنين والمنافقين ؟، وأىّ معنى لذكر مسجد بيت المقدس هاهنا ؟، **فإن كان** المراد: أن الله سبحانه ينزع سور بيت المقدس ، ويجعله فى الدار الآخرة سورًا مضروبا بين المؤمنين والمنافقين، فما معنى **تفسير** باطن السور وما فيه من الرّحمة **بالمسجد** ، وإن كان المراد: أن الله يسوق فريقى المؤمنين والمنافقين **إلى** بيت المقدس فيجعل المؤمنين داخل السور **فى المسجد** ، ويجعل المنافقين خارجه ، فهم إذ ذاك على الصراط وفى طريق الجنة وليسوا ببيت المقدس ، فإن كان مثل هذا التفسير ثابتا عن رسول الله ﷺ قبلناه وآمنا به ، وإلا فلا كرامة ولا قبول . وأخرج البيهقى فى الشعب عن ابن عباس **فى** قوله: ﴿**ولكنكم فتنتم أنفسكم**﴾ قال : بالشهوات واللذات ﴿ **وتربصتم** ﴾ قال : بالتوبة .﴿ **وغرتكم الأمانىّ حتى جاء أمر الله**﴾ قال: الموت ﴿ **وغركم بالله الغرور** ﴾ قال : الشيطان .

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٦) اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٧) إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ

---

(١) ابن جرير ٢٧/ ١٢٩ .

(٢) الطبرانى (١١٢٤٢) قال الهيثمى فى المجمع ١٠/ ٣٦٢: «فيه إسحاق بن بشر ـ أبو حذيفة ـ وهو متروك».

(٣) ابن جرير ٢٧/ ١٣٠ وصححه الحاكم ٤/ ٦٠١ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .

وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١٨) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١٩)﴾

قوله : ﴿ **ألم يأن للذين آمنوا** ﴾ يقال : أنى لك يأنى أنى : إذا حان . قرأ الجمهور : ﴿**ألم يأن** ﴾ وقرأ الحسن وأبو السمال : « ألما يأن » وأنشد ابن السكيت :

ألمـــا يـــأن لى أن تجـلى عمـايتى وأقـصر عن ليـلى ؟ بـلى قد أنى ليا

و﴿ **أن تخشع قلوبهم** ﴾ فاعل يأن ، أى لم يحضر خشوع قلوبهم ويجىء وقته . ومنه قول الشاعر :

ألم يأن لى يا قلب أن أترك الجهلا وأن يحدث الشيب المنير لنا عقلا ؟

هذه الآية نزلت فى المؤمنين .قال الحسن : يستبطئهم وهم أحبّ خلقه إليه . وقيل : إن الخطاب لمن آمن بموسى وعيسى دون محمد . قال الزجاج : نزلت فى طائفة من المؤمنين ،حثوا على الرقة والخشوع ، فأما من وصفهم الله بالرّقة والخشوع فطبقة فوق هؤلاء . وقال السدّى وغيره : المعنى : ألم يأن للذين آمنوا فى الظاهر وأسّروا الكفر أن تخشع قلوبهم ﴿ **لذكر الله** ﴾ وسيأتى فى آخر البحث ما يقوّى قول من قال: إنها نزلت فى المسلمين . والخشوع لين القلب ورقته . والمعنى : أنه ينبغى أن يورثهم الذكر خشوعا ورقة ، ولا يكونوا كمن لا يلين قلبه للذكر ولا يخضع له ﴿ **وما نزل من الحق**﴾ معطوف على ذكر الله ، والمراد بما نزل من الحقّ : القرآن ، فيحمل الذكر المعطوف عليه على ما عداه مما فيه ذكر الله سبحانه باللسان ، أو خطور بالقلب ، وقيل : المراد بالذكر هو القرآن ، فيكون هذا العطف من باب عطف التفسير ، أو باعتبار تغاير المفهومين . قرأ الجمهور : « نزل » مشدداً مبنيا للفاعل، وقرأ نافع وحفص بالتخفيف مبنيا للفاعل . وقرأ الجحدرى وأبو جعفر والأعمش وأبو عمرو فى رواية عنه مشدّدا مبنيا للمفعول . وقرأ ابن مسعود : « أنزل » مبنيًا للفاعل ﴿**ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل**﴾ قرأ الجمهور بالتحتية على الغيبة جريا على ما تقدّم ، وقرأ أبو حيوة وابن أبى عبلة بالفوقية على الخطاب التفاتا ، وقرأ بها عيسى وابن إسحاق ، والجملة معطوفة على تخشع ، أى ألم يأن لهم أن تخشع قلوبهم ولا يكونوا ؟ والمعنى: النهى لهم عن أن يسلكوا سبيل اليهود والنصارى الذين أوتوا التوراة والإنجيل من قبل نزول القرآن ﴿ **فطال عليهم الأمد**﴾ أى طال عليهم الزمان بينهم وبين أنبيائهم . قرأ الجمهور :﴿**الأمد** ﴾ بتخفيف الدال وقرأ ابن كثير فى رواية عنه بتشديدها ، أى الزّمن الطويل ، وقيل : المراد بالأمد على القراءة الأولى : الأجل

والغاية، يقال: أمد فلان كذا ، أى غايته ﴿**فقست قلوبهم**﴾ بذلك السبب فلذلك حرّفوا وبدلوا، فنهى الله سبحانه أمة محمد ﷺ أن يكونوا مثلهم ﴿**وكثير منهم فاسقون**﴾ أى خارجون عن طاعة الله لأنهم تركوا العمل بما أنزل إليهم ، وحرّفوا وبدلوا ولم يؤمنوا بما نزل على محمد ﷺ . وقيل: هم الذين تركوا الإيمان بعيسى ومحمد ﷺ وقيل: هم الذين ابتدعوا الرهبانية، وهم أصحاب الصوامع . ﴿ **اعلموا أن الله يحيى الأرض بعد موتها** ﴾ فهو قادر على أن يبعث الأجسام بعد موتها ، ويلين القلوب بعد قسوتها ﴿**قد بينا لكم الآيات**﴾ التى من جملتها هذه الآيات ﴿**لعلكم تعقلون**﴾ أى كى تعقلوا ما تضمنته من المواعظ وتعملوا بموجب ذلك .

﴿**إن المصدّقين والمصدّقات** ﴾ قرأ الجمهور بتشديد الصاد فى الموضعين من الصدقة ، وأصله المتصَدّقين والمتصدّقات ، فأدغمت التاء فى الصاد ، وقرأ أبيّ : « المتصدّقين والمتصدّقات » بإثبات التاء على الأصل . وقرأ ابن كثير بتخفيف الصاد فيهما من التصديق ، أى صدّقوا رسول الله ﷺ فيما جاء به ﴿ **وأقرضوا الله قرضا حسنا** ﴾ معطوف على اسم الفاعل فى المصدّقين لأنه لما وقع صلة للألف واللام الموصولة حلّ محلّ الفعل فكأنه قال : إن الذين تصدّقوا وأقرضوا ، كذا قال أبو على الفارسى وغيره . وقيل : جملة : ﴿ **وأقرضوا** ﴾ معترضة بين اسم إن وخبرها ، وهو ﴿ **يضاعف** ﴾ وقيل: هى صلة لموصول محذوف، أى والذين أقرضوا ، والقرض الحسن، عبارة عن التصدق والإنفاق فى سبيل الله مع خلوص نية وصحة قصد واحتساب أجر . قرأ الجمهور :﴿ **يضاعف لهم** ﴾ بفتح العين على البناء للمفعول ، والقائم مقام الفاعل إما الجار والمجرور أو ضمير يرجع إلى المصدِّقين على حذف مضاف ، أى ثوابهم . وقرأ الأعمش : «يضاعفه » بكسر العين وزيادة الهاء ، وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب : « يضعف » بتشديد العين وفتحها ﴿ **ولهم أجر كريم** ﴾ وهو الجنة ، والمضاعفة هنا أن الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف .

﴿ **والذين آمنوا بالله ورسله** ﴾ جميعا ، والإشارة بقوله : ﴿ **أولئك** ﴾ إلى الموصول ، وخبره قوله : ﴿ **هم الصدّيقون والشهداء** ﴾ الجملة خبر الموصول . قال مجاهد : كل من آمن بالله ورسوله فهو صدّيق . قال المقاتلان: هم الذين لم يشكوا فى الرسل حين أخبروهم ولم يكذّبوهم ، وقال مجاهد : هذه الآية للشهداء خاصة ، وهم الأنبياء ، الذين يشهدون للأمم وعليهم ، واختار هذا الفراء والزجاج . وقال مقاتل بن سليمان : هم الذين استشهدوا فى سبيل الله ، وكذا قال ابن جرير . وقيل : هم أمم الرسل يشهدون يوم القيامة لأنبيائهم بالتبليغ ، والظاهر أن معنى الآية : إن الذين آمنوا بالله ورسله جميعا بمنزلة الصدّيقين والشهداء المشهورين بعلوّ الدرجة عند الله . وقيل : إن الصدّيقين هم المبالغون فى الصدق حيث آمنوا بالله وصدّقوا جميع رسله ، والقائمون لله سبحانه بالتوحيد . ثم بين سبحانه حالهم من الخير بسبب ما اتصفوا به من الإيمان بالله ورسله فقال : ﴿ **لهم أجرهم ونورهم** ﴾ والضمير الأوّل

راجع إلى الموصول ، والضميران الأخيران راجعان إلى الصدّيقين والشهداء ، أى لهم مثل أجرهم ونورهم ، وأما على قول من قال : إن الذين آمنوا بالله ورسله هم نفس الصديقين والشهداء ، فالضمائر الثلاثة كلها راجعة إلى شيء واحد ، والمعنى : لهم الأجر والنور الموعودان لهم ، ثم لما ذكر حال المؤمنين وثوابهم ذكر حال الكافرين وعقابهم فقال : ﴿ **والذين كفروا وكذبوا بآياتنا** ﴾ أى جمعوا بين الكفر وتكذيب الآيات ، والإشارة بقوله : ﴿ **أولئك** ﴾ إلى الموصول باعتبار ما فى صلته من اتصافهم بالكفر والتكذيب ، وهذا مبتدأ وخبره : ﴿ **أصحاب الجحيم** ﴾ يعذبون بها ولا أجر لهم ولا نور ، بل عذاب مقيم وظلمة دائمة .

وقد أخرج ابن مردويه عن أنس عن النبى ﷺ قال : « استبطأ الله قلوب المهاجرين بعد سبع عشرة سنة من نزول القرآن، فأنزل الله : ﴿ **ألم يأن للذين آمنوا** ﴾ ... الآية ». وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت : خرج رسول الله ﷺ على نفر من أصحابه فى المسجد وهم يضحكون ، فسحب رداءه محمرا وجهه فقال : « أتضحكون ولم يأتكم أمان من ربكم بأنه قد غفر لكم ولقد أنزل علىّ فى ضحككم آية : ﴿ **ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله** ﴾» قالوا: يارسول الله ، فما كفارة ذلك ؟ قال: « تبكون بقدر ما ضحكتم ». وأخرج مسلم والنسائى وابن ماجة وابن المنذر وابن مردويه عن ابن مسعود قال : ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية : ﴿ **ألم يأن للذين آمنوا** ﴾ إلا أربع سنين [١] . وأخرج نحوه عنه ابن المنذر والطبرانى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه من طريق أخرى. وأخرج أبو يعلى وابن مردويه عنه أيضا قال : لما نزلت هذه الآية أقبل بعضنا على بعض : أى شيء أحدثنا :أىّ شيء صنعنا ؟ . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : إن الله استبطأ قلوب المهاجرين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن : ﴿ **ألم يأن للذين آمنوا** ﴾... الآية . وأخرج ابن أبى شيبة فى المصنف عن عبد العزيز بن أبى روّاد أن اصحاب النبىّ ﷺ ظهر فيهم المزاح والضحك ، فنزلت هذه الآية: ﴿ **ألم يأن للذين آمنوا** ﴾[٢] .

وأخرج ابن المبارك عن ابن عباس : ﴿ **اعلموا أن الله يحيى الأرض بعد موتها** ﴾ قال: يعنى أنه يلين القلوب **بعد** قسوتها . وأخرج ابن جرير عن البراء بن عازب سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مؤمنو أمتى شهداء» ثم تلا النبىّ ﷺ : ﴿ **والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصدّيقون والشهداء عند ربهم** ﴾ [٣] . وأخرج ابن المنذر عن ابن مسعود قال: كل مؤمن صديق وشهيد . وأخرج الحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : إن الرجل ليموت على فراشه وهو شهيد ثم تلا هذه الآية . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى هريرة نحوه .

---

(١) مسلم فى التفسير (٣٠٢٧ / ٢٤) والنسائى فى التفسير (٥٨٨) وابن ماجة فى الزهد (٤١٩٢) عن عبد الله بن الزبير وليس ابن مسعود كما عند مسلم والنسائى .

(٢) ابن أبى شيبة (١٧٥٦٤) .

(٣) ابن جرير ٢٧/ ١٣٣ .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس : ﴿ **والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصدّيقون** ﴾ قال : هذه مفصولة ﴿ **والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم** ﴾ . وأخرج ابن حبان عن عمرو بن مرة الجهني : قال : جاء رجل إلى النبيّ ﷺ فقال : يارسول الله أرأيت إن شهدت أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، وصليت الصلوات الخمس ، وأديت الزكاة ، وصمت رمضان ، وقمته فممن أنا ؟ قال : « من الصدّيقين والشهداء »[(١)] .

﴿ **اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (٢٠) سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢١) مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣) الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٤)** ﴾

قوله : ﴿ **اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو** ﴾ لما ذكر سبحانه حال الفريق الثانى وما وقع منهم من الكفر والتكذيب ، وذلك بسبب ميلهم إلى الدنيا وتأثيرها بين لهم حقارتها ، وأنها أحقر من أن تؤثر على الدار الآخرة ، واللعب :هو الباطل ، واللهو :كل شىء يتلهى به ثم يذهب ، قال قتادة : لعب ولهو : أكل وشرب . قال مجاهد : كلّ لعب لهو . وقيل : اللعب : ما رغب فى الدنيا ، واللهو: ما ألهى عن الآخرة وشغل عنها . وقيل : اللعب : الاقتناء ، واللهو : النساء ، وقد تقدّم تحقيق هذا فى سورة الأنعام ، والزينة: التزين بمتاع الدنيا دون عمل للآخرة ﴿ **وتفاخر بينكم** ﴾ قرأ الجمهور بتنوين ﴿ **تفاخر** ﴾ والظرف صفة له ، أو معمول له ، وقرأ السلمى بالإضافة ، أى يفتخر به بعضكم على بعض ، وقيل : يتفاخرون بالخلقة والقوّة . وقيل : بالأنساب والأحساب كما كانت عليه العرب ﴿**وتكاثر فى الأموال والأولاد** ﴾ أى يتكاثرون بأموالهم وأولادهم ويتطاولون بذلك على الفقراء . ثم بين سبحانه لهذه الحياة شبها وضرب لها مثلا فقال : ﴿ **كمثل غيث أعجب الكفار نباته** ﴾ أى كمثل مطر أعجب الزراع نباته ، والمراد بالكفار هنا : الزراع لأنهم يكفرون البذر ، أى يغطونه بالتراب، ومعنى نباته : النبات الحاصل به ﴿**ثم يهيج** ﴾ أى يجفّ بعد خضرته وييبس ﴿**فتراه**

(١) ابن حبان فى الموارد فى الإيمان (١٩) .

مصفرا ﴾ أى متغيرا عما كان عليه من الخضرة . والرونق إلى لون الصفرة والذبول ﴿ **ثم يكون حطاما** ﴾ أى فتاتا هشيما متكسرا متحطما بعد يبسه ، وقد تقدّم تفسير هذا المثل فى سورة يونس والكهف ، والمعنى : أن الحياة الدنيا كالزرع يعجب الناظرين إليه لخضرّته وكثرة نضارته ، ثم لا يلبث أن يصير هشيما تبنا كأن لم يكن . وقرئ : « مصفارًا » والكاف فى محل نصب على الحال، أو محل رفع على أنها خبر بعد خبر أو خبر مبتدأ محذوف ، ثم لما ذكر سبحانه حقارة الدنيا وسرعة زوالها ، ذكر ما أعدّه للعصاة فى الدار الآخرة فقال : ﴿ **وفى الآخرة عذاب شديد**﴾ وأتبعه بما أعدّ لأهل الطاعة فقال : ﴿ **ومغفرة من الله ورضوان** ﴾ والتنكير فيهما للتعظيم. قال قتادة : عذاب شديد لأعداء الله ، ومغفرة من الله ورضوان لأوليائه وأهل طاعته، قال الفراء : التقرير فى الآية إما عذاب شديد وإما مغفرة ، فلا يوقف على شديد، ثم ذكر سبحانه بعد الترهيب والترغيب حقارة الدنيا فقال :﴿ **وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور** ﴾ لمن اغتر بها ولا يعمل لآخرته . قال سعيد بن جبير : متاع الغرور لمن لم يشتغل بطلب الآخرة ومن اشتغل بطلبها فله متاع بلاغ إلى ما هو خير منه ، وهذه الجملة مقررة للمثل المتقدّم ومؤكدة له .

ثم ندب عباده إلى المسابقة إلى ما يوجب المغفرة من التوبة والعمل الصالح ، فإن ذلك سبب إلى الجنة فقال : ﴿**سابقوا إلى مغفرة من ربكم** ﴾ أى سارعوا مسارعة السابقين بالأعمال الصالحة التى توجب المغفرة لكم من ربكم وتوبوا مما وقع منكم من المعاصى ، وقيل : المراد بالآية : التكبيرة الأولى مع الإمام ، قاله مكحول . وقيل : المراد : الصفّ الأوّل ، ولا وجه لتخصيص ما فى الآية بمثل هذا ، بل هو من جملة ما تصدّق عليه صدقا شموليا أو بدليا ﴿ **وجنة عرضها كعرض السماء والأرض** ﴾ أى كعرضهما ، وإذا كان هذا قدر عرضها فما ظنك بطولها . قال الحسن : يعنى :جميع السموات والأرضين مبسوطات كل واحدة إلى صاحبتها ، وقيل : المراد: بالجنة التى عرضها هذا العرض هى جنة كل واحد من أهل الجنة ، وقال ابن كيسان : عنى به جنة واحدة من الجنات ، والعرض أقل من الطول ، ومن عادة العرب أنها تعبر عن الشىء بعرضه دون طوله . ومن ذلك قول الشاعر :

كأن بلاد الله وهى عريضة على الخائف المطلوب كفة حابل

وقد مضى تفسير هذا فى سورة آل عمران . ثم وصف سبحانه تلك الجنة بصفة أخرى فقال: ﴿ **أعدت للذين آمنوا بالله ورسله** ﴾ ويجوز أن تكون هذه الجملة مستأنفة ، وفى هذا دليل على أن استحقاق الجنة يكون بمجرّد الإيمان بالله ورسله ، ولكن هذا مقيد بالأدلة الدالة على أنه لا يستحقها إلا من عمل بما فرض الله عليه واجتنب ما نهاه الله عنه ، وهى أدلة كثيرة فى الكتاب والسنة ، والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى ما وعد به سبحانه من المغفرة والجنة ، وهو مبتدأ وخبره : ﴿ **فضل الله يؤتيه من يشاء** ﴾ أى يعطيه من يشاء إعطاءه إياه تفضلا وإحسانا ﴿**والله ذو الفضل العظيم** ﴾ فهو يتفضل على من يشاء بما يشاء ، لا مانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع ، والخير كله بيده ، وهو الكريم المطلق والجواد الذى لا يبخل . ثم بيّن

سبحانه أن ما يصاب به العباد من المصائب قد سبق بذلك قضاؤه وقدره وثبت فى أمّ الكتاب فقال: ﴿**ما أصاب من مصيبة فى الأرض**﴾ من قحط مطر وضعف نبات ونقص ثمار ، قال مقاتل : القحط وقلة النبات والثمار . وقيل: الجوائح فى الزرع ﴿**ولا فى أنفسكم**﴾ قال قتادة : بالأوصاب والأسقام . وقال مقاتل : إقامة الحدود : وقال ابن جريج : ضيق المعاش ﴿**إلا فى كتاب**﴾ فى محل نصب على الحال من مصيبة أى إلا حال كونها مكتوبة فى كتاب ، وهو اللوح المحفوظ ، وجملة : ﴿**من قبل أن نبرأها**﴾ فى محل جر صفة لكتاب ، والضمير فى نبرأها عائد إلى المصيبة أو إلى الأنفس ، أو إلى الأرض ، أو إلى جميع ذلك . ومعنى ﴿**نبرأها**﴾: نخلقها ﴿**إن ذلك على الله يسير**﴾ أى أن إثباتها فى الكتاب على كثرته على الله يسير غير عسير .

﴿**لكيلا تأسوا على ما فاتكم**﴾ أى اختبرناكم بذلك لكيلا تحزنوا على ما فاتكم من الدنيا ﴿**ولا تفرحوا بما آتاكم**﴾ منها أى أعطاكم منها ، فإن ذلك يزول عن قريب ، وكلّ زائل عن قريب لا يستحق أن يفرح بحصوله، ولا يحزن على فواته، ومع أن الكل بقضاء الله وقدره ، فلن يعدو امرأ ما كتب له ، وما كان حصوله كائنا لا محالة ؛ فليس بمستحق للفرح بحصوله ولا الحزن على فوته ، قيل : والحزن والفرح المنهى عنهما هما اللذان يتعدّى فيهما إلى ما لا يجوز ، وإلا فليس من أحد إلا وهو يحزن ويفرح ، قرأ الجمهور : ﴿**بما آتاكم**﴾ بالمدّ أعطاكم، وقرأ أبو العالية ونصر بن عاصم وأبو عمرو بالقصر ، أى جاءكم ، واختار القراءة الأولى أبو حاتم ، واختار القراءة الثانية أبو عبيد ﴿**والله لا يحب كل مختال فخور**﴾ أى لا يحب من اتصف بهاتين الصفتين ، وهما الاختيال والافتخار قيل : هو ذمّ للفرح الذى يختال فيه صاحبه ويبطر . وقيل : إن من فرح بالحظوظ الدنيوية وعظمت فى نفسه اختال وافتخر بها . وقيل : المختال : الذى ينظر إلى نفسه، والفخور : الذى ينظر إلى الناس بعين الاستحقار ، والأولى تفسير هاتين الصفتين بمعناهما الشرعى ثم اللغوى ، فمن حصلتا فيه فهو الذى لا يحبه الله .

﴿**الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل**﴾ الموصول فى محل رفع بالابتداء ، وهو كلام مستأنف لا تعلق له بما قبله والخبر مقدر ، أى الذين يبخلون فالله غنيّ عنهم ، ويدل على ذلك قوله : ﴿**ومن يتولّ فإن الله هو الغنىّ الحميد**﴾ . وقيل : الموصول فى محل جرّ بدل من مختال، وهو بعيد، فإن هذا البخل بما فى اليد وأمر الناس بالبخل ليس هو معنى المختال الفخور، لا لغة ، ولا شرعا . وقيل : هو فى محل جرّ نعت له ، وهو أيضا بعيد ، قال سعيد بن جبير : الذين يبخلون بالعلم، ويأمرون الناس بالبخل به لئلا يعلموا الناس شيئا ، وقال زيد بن أسلم: أنه البخل بأداء حق الله . وقيل : إنه البخل بالصدقة ، وقال طاووس : إنه البخل بما فى يديه ، وقيل : أراد رؤساء اليهود الذين بخلوا ببيان صفة محمد ﷺ فى كتبهم لئلا يؤمن به الناس فتذهب مآكلهم ، قاله السدّى والكلبى . قرأ الجمهور : ﴿**بالبخل**﴾ بضم الباء وسكون الخاء ، وقرأ أنس وعبيد بن عمير ويحيى بن يعمر ومجاهد وحميد وابن محيصن

وحمزة والكسائى بفتحتين وهى لغة الأنصار. وقرأ أبو العالية وابن السميقع بفتح الباء وسكون الخاء ، وقرأ نصر بن عاصم بضمهما ، وكلها لغات ﴿ **ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد** ﴾ أى ومن يعرض عن الإنفاق فإن الله غنىّ عنه محمود عند خلقه لا يضره ذلك ، قرأ الجمهور ﴿**هو الغنى**﴾ بإثبات ضمير الفصل ، وقرأ نافع وابن عامر :« فإن الله الغنى الحميد » بحذف الضمير.

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم** ﴾ يقول فى الدين والدنيا ﴿ **إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها** ﴾ قال : نخلقها ﴿ **لكيلا تأسوا على ما فاتكم** ﴾ من الدنيا ﴿**ولا تفرحوا بما آتاكم** ﴾ منها. وأخرج ابن جرير عنه فى الآية قال : هو شىء قد فرغ منه من قبل أن تبرأ الأنفس . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الشعب عنه أيضا فى قوله : ﴿ **لكيلا تأسوا على ما فاتكم** ﴾ الآية قال : ليس أحد إلا وهو يحزن ويفرح ، ولكن من أصابته مصيبة جعلها صبرا ، ومن أصابه خير جعله شكرًا [١] . وأخرج ابن المنذر عنه فى الآية قال : يريد مصائب المعاش ، ولا يريد مصائب الدين ، إنه قال: ﴿**لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم** ﴾ وليس هذا من مصائب الدين ، أمرهم أن يأسوا على السيئة ، ويفرحوا بالحسنة .

﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٦) ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٨) لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩) ﴾**

قوله : ﴿ **لقد أرسلنا رسلنا بالبينات** ﴾ أى بالمعجزات والشرائع الظاهرة ﴿ **وأنزلنا معهم**

(١) ابن جرير ٢٧/ ١٣٦ وصححه الحاكم ٢/ ٤٧٩ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٩٧٧١) .ط . دار الكتب .

الكتاب ﴾ المراد الجنس ، فيدخل فيه كتاب كلّ رسول ﴿ **والميزان ليقوم الناس بالقسط** ﴾ قال قتادة ومقاتل بن حيان : الميزان : العدل : أمرناهم بالعدل كما فى قوله : ﴿ والسماء رفعها ووضع الميزان ﴾ [الرحمن: ٧] وقوله: ﴿ الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان ﴾ [الشورى: ١٧] وقال ابن زيد : هو ما يوزن به ويتعامل به ، ومعنى ﴿ **ليقوم الناس بالقسط**﴾ : ليتبعوا ما أمروا به من العدل فيتعاملوا فيما بينهم بالنصفة ، والقسط : العدل ، وهو يدل على أن المراد بالميزان العدل ، ومعنى إنزاله : إنزال أسبابه وموجباته ، وعلى القول بأن المراد به: الآلة التى يوزن بها فيكون إنزاله بمعنى: إرشاد الناس إليه وإلهامهم الوزن به ، ويكون الكلام من باب:

علفتها تبنًا وماء باردا

﴿ **وأنزلنا الحديد** ﴾ أى خلقناه كما فى قوله : ﴿ وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج﴾ [الزمر : ٦] والمعنى : أنه خلقه من المعادن وعلم الناس صنعته . وقيل : إنه نزل مع آدم ﴿ **فيه بأس شديد** ﴾ لأنه تتخذ منه آلات الحرب، قال الزجاج: يمتنع به ويحارب ، والمعنى : أنه تتخذ منه آلة للدفع وآلة للضرب ، قال مجاهد : فيه جنة وسلاح ، ومعنى ﴿**ومنافع للناس**﴾: أنهم ينتفعون به فى كثير مما يحتاجون إليه مثل السكين والفأس ، والإبرة وآلات الزراعة والتجارة والعمارة ، ﴿ **وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب** ﴾ معطوف على قوله : ﴿ **ليقوم الناس** ﴾ أى لقد أرسلنا رسلنا وفعلنا كيت وكيت ليقوم الناس وليعلم . وقيل : معطوف على علة مقدرّة، كأنه قيل : ليستعملوه وليعلم الله ، والأوّل أولى، والمعنى : أن الله أمر فى الكتاب الذى أنزل بنصرة دينه ورسله فمن نصر دينه ورسله علمه ناصرا ، ومن عصى علمه بخلاف ذلك و﴿**بالغيب**﴾ فى محلّ نصب على الحال من فاعل ينصره أو من مفعوله، أى غائبا عنهم أو غائبين عنه ﴿**إن الله قوىٌّ عزيز** ﴾ أى قادر على كل شىء غالب لكل شىء ، وليس له حاجة فى أن ينصره أحد من عباده وينصر رسله ، بل كلفهم بذلك لينتفعوا به إذا امتثلوا ويحصل لهم ما وعد به عباده المطيعين .

﴿ **ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم** ﴾ لما ذكر سبحانه إرسال الرسل إجمالا أشار هنا إلى نوع تفصيل فذكر رسالته لنوح وإبراهيم ، وكرّر القسم للتوكيد ﴿ **وجعلنا فى ذريتهما النبوّة والكتاب**﴾ أى جعلنا فيهم النبوّة والكتب المنزلة على الأنبياء منهم ، وقيل : جعل بعضهم أنبياء وبعضهم يتلون الكتاب ﴿ **فمنهم مهتد** ﴾ أى فمن الذرية من اهتدى بهدى نوح وإبراهيم. وقيل : المعنى : فمن المرسل إليهم من قوم الأنبياء مهتد بما جاء به الأنبياء من الهدى ﴿ **وكثير منهم فاسقون** ﴾ : خارجون عن الطاعة .

﴿ **ثم قفينا على آثارهم برسلنا** ﴾ أى أتبعنا على آثار الذرية أو على آثار نوح وإبراهيم برسلنا الذين أرسلناهم إلى الأمم كموسى وإلياس وداود وسليمان وغيرهم ﴿ **وقفينا بعيسى ابن مريم** ﴾ أى أرسلنا رسولا بعد رسول حتى انتهى إلى عيسى ابن مريم وهو من ذرية إبراهيم من

جهة أمه ﴿ **وآتيناه الإنجيل** ﴾ وهو الكتاب الذى أنزله الله عليه، وقد تقدّم ذكر اشتقاقه فى سورة آل عمران . قرأ الجمهور : ﴿ **الإنجيل** ﴾ بكسر الهمزة ، وقرأ الحسن بفتحها ﴿**وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة** ﴾ الذين اتبعوه هم الحواريون جعل الله فى قلوبهم مودّة لبعضهم البعض ، ورحمة يتراحمون بها ، بخلاف اليهود فإنهم ليسوا كذلك ، وأصل الرافة : اللين ، والرحمة :الشفقة ، وقيل: الرأفة : أشد الرحمة ، ﴿ **ورهبانية ابتدعوها** ﴾ انتصاب ﴿ **رهبانية** ﴾ على الاشتغال ، أى وابتدعوا رهبانية ابتدعوها ، وليس بمعطوفة على ما قبلها . وقيل : معطوفة على ما قبلها ، أى وجعلنا فى قلوبهم رأفة ورحمة ورهبانية مبتدعة من عند أنفسهم ، والأوّل أولى ، ورجحه أبو على الفارسى وغيره ، وجملة : ﴿ **ما كتبناها عليهم** ﴾ صفة ثانية لرهبانية ، أو مستأنفة مقررّة لكونها مبتدعة من جهة أنفسهم ، والمعنى : ما فرضناها عليهم ، والرهبانية بفتح الراء وضمها ، وقد قرئ بهما ، وهى بالفتح : الخوف من الرهب ، وبالضم منسوبة إلى الرهبان ، وذلك لأنهم غلوا فى العبادة وحملوا على المشقات فى الامتناع من المطعم والمشرب والمنكح، وتعلقوا بالكهوف والصوامع ؛ لأن ملوكهم غيروا وبدلوا وبقى منهم نفر قليل فترهبوا وتبتلوا ، ذكر معناه الضحاك وقتادة وغيرهما ﴿ **إلا ابتغاء رضوان الله** ﴾ الاستثناء منقطع ، أى ما كتبناها نحن عليهم رأسا ، ولكن ابتدعوها ابتغاء رضوان الله ، وقال الزجاج : ما كتبناها عليهم معناه لم نكتب عليهم شيئا البتة ، قال : ويكون ﴿ **إلا ابتغاء رضوان الله**﴾ بدلا من الهاء والألف فى كتبناها ، والمعنى : ما كتبنا عليهم إلا ابتغاء رضوان الله ﴿ **فما رعوها حقّ رعايتها**﴾ أى لم يرعوا هذه الرهبانية التى ابتدعوها من جهة أنفسهم ، بل صنعوها ، وكفروا بدين عيسى، ودخلوا فى دين الملوك الذين غيروا وبدّلوا وتركوا الترهب ، ولم يبق على دين عيسى إلا قليل منهم ، وهم المرادون بقوله : ﴿ **فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم**﴾ الذى يستحقونه بالإيمان ، وذلك لأنهم آمنوا بعيسى وثبتوا على دينه حتى آمنوا بمحمد ﷺ لما بعثه الله ﴿ **وكثير منهم فاسقون**﴾ : خارجون عن الإيمان بما أمروا أن يؤمنوا به ، ووجه الذّم لهم على تقدير أن الاستثناء منقطع أنهم قد كانوا ألزموا أنفسهم الرهبانية معتقدين أنها طاعة وأن الله يرضاها ، فكان تركها وعدم رعايتها حق الرعاية يدل على عدم مبالاتهم بما يعتقدونه دينا ، وأما على القول بأن الاستثناء متصل ، وأن التقدير: ما كتبناها عليهم لشىء من الأشياء إلا ليبتغوا بها رضوان الله بعد أن وفقناهم لابتداعها فوجه الذم ظاهر.

ثم أمر سبحانه المؤمنين بالرسل المتقدّمين بالتقوى والإيمان بمحمد ﷺ . فقال : ﴿ **يأيها الذين آمنوا اتقوا الله** ﴾ بترك ما نهاكم عنه ﴿ **وآمنوا برسوله** ﴾ محمد ﷺ ﴿ **يؤتكم كفلين من رحمته** ﴾ أى نصيبين من رحمته بسبب إيمانكم برسله بعد إيمانكم بمن قبله من الرسل ، وأصل الكفل : الحظ والنصيب ، وقد تقدّم الكلام على تفسيره فى سورة النساء. ﴿**ويجعل لكم نورا تمشون به** ﴾ يعنى : على الصراط كما قال : ﴿ نورهم يسعى بين أيديهم ﴾ [التحريم : ٨] وقيل : المعنى : ويجعل لكم سبيلا واضحا فى الدين تهتدون به ﴿ **ويغفر لكم** ﴾ ما سلف

من ذنوبكم ﴿ **والله غفور رحيم** ﴾ أى بليغ المغفرة والرحمة . ﴿ **لئلا يعلم أهل الكتاب** ﴾ اللام متعلقة بما تقدّم من الأمر بالإيمان والتقوى ، والتقدير : اتقوا وآمنوا يؤتكم كذا وكذا ليعلم الذين لم يتقوا ولا آمنوا من أهل الكتاب ﴿ **أن لا يقدرون على شيء من فضل الله** ﴾ و «لا» فى قوله : ﴿ **لئلا** ﴾ زائدة للتوكيد ، قاله الفراء والأخفش وغيرهما ، و « أن » فى قوله : ﴿ **أن لا يقدرون** ﴾ هى المخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير شأن محذوف وخبرها ما بعدها ، والجملة فى محل نصب على أنها مفعول يعلم ، والمعنى : ليعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرون على أن ينالوا شيئا من فضل الله الذى تفضل به على من آمن بمحمد ﷺ ، ولا يقدرون على دفع ذلك الفضل الذى تفضل الله به على المستحقين له ، وجملة : ﴿ **وأن الفضل بيد الله** ﴾ معطوفة على الجملة التى قبلها ، أى ليعلموا أنهم لا يقدرون وليعلموا أن الفضل بيد الله سبحانه ، وقوله : ﴿**يؤتيه من يشاء** ﴾ خبرثان لأن ، أو هو الخبر ، والجارّ والمجرور فى محل نصب على الحال ﴿**والله ذو الفضل العظيم** ﴾ هذه الجملة مقررّة لمضمون ما قبلها . والمراد بالفضل هنا : ما تفضل به على الذين اتقوا ، وآمنوا برسوله من الأجر المضاعف . وقال الكلبى : هو رزق الله . وقيل: نعم الله التى لا تحصى، وقيل : هو الإسلام ، وقد قيل : إن « لا » فى ﴿ **لئلا** ﴾ غير مزيدة، وضمير ﴿ **لا يقدرون** ﴾ للنبىّ ﷺ وأصحابه ، والمعنى : لئلا يعتقد أهل الكتاب أنه لا يقدر النبىّ والمؤمنون على شىء من فضل الله الذى هو عبارة عما أوتوه، والأوّل أولى ، وقرأ ابن مسعود : « لكيلا يعلم » وقرأ خطاب بن عبد الله : « لأن يعلم » وقرأ عكرمة :« ليعلم » وقرئ: «ليلا» بقلب الهمزة ياء ، وقرئ بفتح اللام .

وقد أخرج عبد بن حميد، والحكيم الترمذى فى نوادر الأصول ، وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر، وابن أبى حاتم وصححه، وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب من طرق [عَن][1] ابن مسعود قال : قال لى رسول الله ﷺ : « يا عبد الله» قلت : لبيك يارسول الله ، ثلاث مرات ، قال .« هل تدرى أى عرى الإسلام أوثق ؟ » قلت: « الله ورسوله أعلم، قال : « أوثق عرى الإيمان الولاية فى الله بالحب فيه والبغض فيه » قال : « هل تدرى أى الناس أفضل ؟ » قلت : [الله ورسوله أعلم] [2] قال :« أفضل الناس أفضلهم عملا ، إذا فقهوا فى دينهم ، يا عبد الله هل تدرى أىّ الناس أعلم ؟» قلت: الله ورسوله أعلم ، قال : « فإن أعلم الناس أبصرهم بالحق إذا اختلف الناس وإن كان مقصرا بالعمل وإن كان يزحف على استه، واختلف من كان قبلنا على اثنتين وسبعين فرقة نجا منها ثلاث وهلك سائرها : فرقة وازرت الملوك وقاتلتهم على دين الله وعيسى ابن مريم ، وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازرة الملوك فأقاموا بين ظهرانى قومهم فدعوهم إلى دين الله ودين عيسى فقتلهم الملوك ونشرتهم بالمناشير ، وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازرة الملوك ولابالمقام معهم فساحوا فى الجبال وترهبوا فيها وهم الذين قال

---

(١) ما بين المعقوفتين ساقط من المطبوعة والصحيح ما أثبتناه من الدر المنثور ٦/ ١٧٧ ومن المخطوطة .

(٢) ما بين المعقوفتين ساقط من المخطوطة وقد أثبتناه من الدر المنثور ٦/ ١٧٧ ومن البيهقى فى الشعب .

الله : ﴿ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم ﴾ هم الذين آمنوا بى وصدقونى ﴿ وكثير منهم فاسقون ﴾ الذين جحدونى وكفروا بى »[١] .

وأخرج النسائى ، والحكيم الترمذى فى نوادر الأصول ، وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس قال : كانت ملوك بعد عيسى بدلت التوراة والإنجيل فكان منهم مؤمنون يقرؤون التوراة والإنجيل . فقيل لملوكهم: ما نجد شيئا أشدّ من شتم يشتمناه هؤلاء ، إنهم يقرؤون : ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ [المائدة : ٤٤] ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ﴾ [المائدة : ٤٥] ﴿فأولئك هم الفاسقون ﴾ [المائدة : ٤٧] مع ما يعيبوننا به من أعمالنا فى قراءتهم ، فادعوهم فليقرؤوا كما نقرأ وليؤمنوا كما آمنا ، فدعاهم فجمعهم وعرض عليهم القتل ، أو ليتركوا قراءة التوراة والإنجيل إلا ما بدلوا منهما ، فقالوا : ما تريدون إلى ذلك ؟ دعونا ، فقالت طائفة منهم : ابنوا لنا أسطوانة ثم ارفعونا إليها ، ثم أعطونا شيئا نرفع به طعامنا وشرابنا ولا نرد عليكم ، وقالت طائفة : دعونا نسيح فى الأرض، ونهيم ونأكل مما تأكل منه الوحوش ونشرب مما تشرب ، فإن قدرتم علينا فى أرضكم فاقتلونا ، وقالت طائفة : ابنوا لنا دورا فى الفيافى ونحتفر الآبار ونحرث البقول فلا نرد عليكم ولا نمر بكم ، وليس أحد من القبائل إلا له حميم فيهم ففعلوا ذلك ، فأنزل الله: ﴿ ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها ﴾ وقال الآخرون : ممن تعبد من أهل الشرك وفنى من فنى منهم قالوا : نتعبد كما تعبد فلان ونسيح كما ساح فلان ، ونتخذ دورا كما اتخذ فلان وهم على شركهم لا علم لهم بإيمان الذين اقتدوا بهم ، فلما بعث النبىّ ﷺ ولم يبق منهم إلا القليل انحط صاحب الصومعة من صومعته، وجاء السياح من سياحته وصاحب الدير من ديره ، فآمنوا به وصدقوه فقال الله : ﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ﴾ أجرين : بإيمانهم بعيسى وتصديقهم بالتوراة والإنجيل ، وبإيمانهم بمحمد وتصديقهم به ﴿ ويجعل لكم نورا تمشون به ﴾ القرآن واتباعهم النبىّ ﷺ[٢] .

وأخرج أحمد والحكيم الترمذى وأبو يعلى ، والبيهقى فى الشعب عن أنس أن النبى ﷺ قال : « إن لكل أمة رهبانية ، ورهبانية هذه الأمة الجهاد فى سبيل الله »[٣] . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى موسى الأشعرى فى قوله : ﴿كفلين ﴾ قال : ضعفين وهى بلسان الحبشة . وأخرج الفريابى وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عمر فى قوله : ﴿ يؤتكم كفلين من رحمته ﴾ قال : الكفل ثلثمائة جزء وخمسون جزءا من رحمة الله .

---

(١) ابن جرير ٢٧/ ١٣٨ والبيهقى فى الشعب (٩٥١٠) . ط . دار الكتب .

(٢) النسائى فى التفسير (٥٨٧) وابن جرير ٢٧/ ١٣٨ وقال ابن كثير ٦/ ٥٦٨ ، ٥٦٩: «هذا السياق فيه غرابة».

(٣) أحمد ٣/ ٢٦٦ وأبو يعلى (٤٢٠٤) والبيهقى فى الشعب (٣٩٢٣) وإسناد الحديث ضعيف لضعف زيد العمى.